

تحيّة الفقّالين الجماهيريين

بقلم عبد القادر حافظ

سويكات كاذبة للراحة ، أو سويكات فرح مبتسر تقطعه الخصومات العائلية : نتاج الأحوال المزرية ، والنفسية المتشجعة بتأثير سوء التغذية الزمن .

ان وضعنا العربي العام ، وضع التخلف الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والثقافي والحضاري ، هو الذي رسم أوسع جماهيرنا الشعبية بهذا اليبس .

وليس من حل لهذه الازمة المستفحلة ، أزمة الأوضاع الراهنة بعامه والجماهير بخاصة ، سوى اللجوء الى التوعية المنظمة - عبر تمبئة مبرمجة - والتي تستهدف جلاء الامور العامة بشكل يجعلها تدرك الترابط الديالكتيكي بين وضعيتها المؤسفة والمزرية ، والتخلف الذي يجثم على صدور البلدان المتأخرة . وينبغي ان نسير خطوة ثانية في طريق التوعية السياسية والطبقية ونحدد للجماهير القوى الاجتماعية التي كانت السبب في هذا التخلف والتي تستميت بشراسة ووقاحة من أجل ابقائه وديمومته . فتشخيص العدو الطبقي أول السلم لاشاعة الوعي الطبقي واكسابه مضمونا اجتماعيا تقدما . ونواصل المهمة لنشعر الجماهير ان الوعي أو الإدراك ليسا كل شيء ، وانما المهم تمبئة هذا الوعي من خلال التنظيم والتنسيق للمبادرات الجماعية الفعالة . فثمة فرق بين أفواج من الناس تخرج من احدى صالات السينما وبين مظاهرة سياسية ، كلاهما تجمّع جماهيري على نحو شكلي ، ولكن الجماهير الثانية تسيرها التوعية الثورية بينما الاولى تمشي مستغرقة في نشوة الفيلم أو ممتعضة من سخافته أو لا ابالية بهذا أو بذاك .

ان زج الجماهير الشعبية التقدمية في ممعان النضال الشوري هي الخطوة العملية لانضاج وعيها الطبقي واشعارها بحقوقها المشروعة والمهزومة في الوقت نفسه . كما انها اشعار للمعو الطبقي بان المستثمر والمستغل نهض من كبوته وسباته ، ولم تعد الامور الا احتداما حديا . مسألة حياة وموت : حياة الطبقات الشعبية التقدمية والثورية ، وموت الاقطاع والبورجوازية بكافة فصائلها والرجعية المحلية بمختلف نحلها ومللها (دينية ، عنصرية ، فاشية ، شوفينية ، سلطوية ، عشائرية ، طائفية الخ .. الخ) .

الآن .. نتحسس ان القضية ، ان زج الجماهير الواسعة في اتون المعركة المصرية الفاصلة ، توشك ان تصبح أكثر جديّة وواقعية ..

ونطرح هنا سؤالاً جوهرياً : ما هي نتيجة تشخيص الحركة الجماهيرية ؟

الجواب السريع ، الشافي : ان هذه الحركة تشكو من ضمور مؤسف . ونقول « ضمور » قياساً الى :

أولاً : تنوع ونضج الاساليب والسبل الثورية في سائر أنحاء العالم المتخلف ، وبالاخص وسيلة الكفاح المسلح - حرب العصابات الشعبية الثورية .

ثانياً : ان الحركة الجماهيرية لديها استعدادات لا حد لها . أي انها حبلية بالقدرات الخلاقة التي من شأنها ان تمنحها خصبا وعطاء لم تحلم بهما من قبل ، قبل تفجيرها . الا انها كواقع مغمور ومطمور يبقى صلدا ازاء الحقائق الراهنة .

قلة قليلة انصرفت للمقارنة الموضوعية ما بين الجماهير الشعبية وهي في حالة ركود وشلل . وحالتها الأخرى أو الثانية . وهي في صيغة ديناميكية من الحركة الدائبة .

ولعل الفارق الاساسي لا يكمن في الناحية الكيفية فحسب ، بل وتواكبها الناحية العددية بالضرورة الحتمية . وتفسير ذلك ، ان حجم الفعالية الثورية يزداد تبعاً للزيادة في الوعي الطبقي والسياسي من جهة وتماسك النواحي التنظيمية والتقنية والتخطيطية من جهة ثانية . فالفرد جاهل يساؤون من الناحية العددية ألف فرد واع . ولكن الحقيقة الموضوعية تثبت ان التطابق العددي هذا لا يتوافر الا في عالم الرياضيات الجرد . أما في عالم الحياة والفكر والحضارة ، فعددية الاخيرين اصغاف مضاعفة لعددية الاولين .

وعلى ضوء ذلك ، تستميت الرجعية المحلية ورتلها الخامس والامبريالية الاميركية من أجل ابقاء سائر جماهير العالم الثالث تعيش في مستويات الجهل والمرض والفاقة : الثالث الطبقي الذي يفرزه رحم التخلف العام (اقتصادي وصناعي وزراعي وثقافي وحضاري) . فالجهل : يجعل الجماهير الشعبية تعاني من ظلام دامس ، ظلام واقعا المزري ، واقع العصور الوسيطة حيث ترفع محاكم التفتيش الطاغية رأسها عند رؤية أدنى بصيص فكر حر .

وهذه الجماهير الجاهلة لا تعي من يومها سوى انه امتداد للامس وصلته وتقى للغد . وما عدا هذه النظرة الميكانيكية فان الامور العامة لا تشغل بالها ولا تحرك اهتمامها وليست جديرة برعايتها . فمالها والامور العامة التي هي من اختصاص النخبة الممتازة والصفوة المختارة من عليّة القوم : سياسيين وشرافا وأرستقراطيين ؟

والمرض : هو الآخر يجعل صلتها بعالم الماورائيات ، الميتافيزيق ، أشد ما يكون ، وأعظم ما يجتد الرجعيون له أنفسهم . فلا يجسد الفعالية الثورية للجماهير الشعبية غير الانصراف عن الشؤون العامة للعالم الموضوعي ، العياني ، الحسي ، والانشغال بعوالم الجن والشياطين .

ذلك ان المرض يهيب المشاعر الفردية والجماعية للانتباه الفعلي المباشر بقضية الموت . موت الانسان كفرد . نهايته كوجود ذاتي . ونحن نعلم من أدبيات الفكر الماركسي ، ان الانسان يحمل في أحشائه ديالكتيك الحياة والموت ، فهو حي - ميت في آن . وآية ذلك ان جرائم الفناء قابعة في جسم هذا الكائن الذي يتحرك ويتنفس ويأكل ويفكر ويتكلم .

فاذا أصبحت جرثومة واحدة من جرائم الموت أقوى من ايّة جرثومة من جرائم النماء والبقاء فان النصر للاولى ، والمصير محتوم على أية حال .

أما الفاقة : الانسان الذي لا يملك شروى تقير ، أو يعيش الى حد الكفاف ، أو تحت مستوى الكفاف ، كما هي حال الغالبية العظمى من كادحيننا : عمالا وفلاحين فقراء وشفيلة ريفية ، فان يومها يمضي في النضال الاقتصادي الفردي الذي يتسم بالمعجز في جميع جوانبه ، ولا يكاد ذهنها يجد مجالا لتنمية كفاءته أو رفع القدرة لتفكيره . اذ ان ذلك شبه مجال . لان النضال القاسي الذي يتخذ صورة وحشية جلية ، يرتشف سويكات النهار ، ولن يبقى من الليل سوى

٢ - التنظيم والتنسيق :

ونصل الآن الى طور التنظيم والتنسيق . فجماعة بلا هدف لا تستطيع غير اجتياز الاعمال الفوضوية الهدامة . اما اذا تم اعلام المناضل الثوري - وايضا الجماعة الثورية - بدوره الخاص والمهام العامة التي يساهم مساهمة فعالة واكيدة في انجازها على المدى القريب او البعيد تبعا لطبيعة تلك المهام ، فاننا بذلك لنجا الى وضع الانسان المناسب في المكان المناسب . ان رص الصف الجماهيري ببنين جماهيري ثوري ذي زخم هائل من شأنه ان يكسب النضال العام امتدادات واسعة وابعادا كانت مجهولة قبل خوضها بشكل مباشر . ان التنظيم والتنسيق يؤديان بيسيط العبرة الى ملافاة اهدار الطاقات والقوى وذلك بزجها في حقول معينة ، ثابتة ، ظاهرة . وفي حالة فقدان هاتين الظاهرتين فان عهود الاستعباد والاستبساد ستمتد الى آفاق بعيدة موفلة في طي المستقبل . اما والحركة الثورية التقدمية تنشأ اختزال الالام الجماهيرية الموجهة واختصار عهود اللذ والعبودية والتخلف والفاقة ، فان المهام العامة تنجز بشكل طبيعي وكامل من الزاوية التي اسلفنا في ذكرها وشرحها .

ويستهدف التنسيق - فيما يستهدف - ازالة الثغرات العامة والخاصة في المواقب الجماهيرية السائرة في مجرى النضال الثوري التقدمي . ان الخصم المتربص لتخريب المسار الثوري العاصم يجد فرصه المتاحة في الطبيعة المهزوزة للبنية الجماهيرية ذات الزخم الضعيف ، فيسهل عليه تبعا لذلك القيام بعمليات القمع والارهاب ، وبالتالي تتحقق النتائج الباهرة بأسرع وقت وبأقل كلفة . وهكذا فالمسيرة الجماهيرية المناضلة تقدر على انجاز مكاسب عظيمة في حالة التماسك الفكري والتنظيمي والاجتماعي في سائر مستوياتها .

٣ - التكتيكات والاستراتيجية :

الاستراتيجية الثورية والتكتيكات المحلية ينبغي ان تنال قسطا وافرا من العناية والاهتمام ، فعلى اساس الواقع الموضوعي يتم تكوين استراتيجية ثورية . ولكل واقع محلي خصائصه الذاتية التي تسحب الى الاسس العامة للاستراتيجية الثورية ، بمعنى ان استلام السلطة كاستراتيجية حتمية وضرورية ، لا يتم بمزول عن توافر تكتيكات توصلنا لهذا الهدف العام ، والا عد ذلك من قبيل الاحلام الطوباوية او التهويمات السخيفة .

وارتباط التكتيكات بالاستراتيجية ، أي ارتباط الفروع بالاصل ، يتم بشكل ديكيني . فلا تكتيك عديم الصلة والرحم بالاستراتيجية . كذلك ينبغي ان تقدر الاستراتيجية حق قدرها فلا تكون - مثلاً - فريية من الخيال . واستراتيجية اليوم قد تصبح تكتيك غد ، أي تغيير نظرا لبلوغها وضعاً في مرتبة ادنى قياساً الى استراتيجية جديدة تستجيب لمستلزمات المرحلة القادمة . وهذه المرونة بعيدة تماما عن المبادئ الكيفيلية والديماغوجية ، لان هذه المبادئ تعكس مناقب الحركات الرجعية والفاشية والمنصيرية الخ ...

هذا هو القطع النظري من الموضوع . اما جانبه العملي فيمكن في ان تتمرس الجماهير على هذه التكتيكات وتؤمن بجودها ، ويكون لها القدرة على تطويرها واخصابها وخلق اساليب نضالية جديدة . وهذا ايمان صريح وواضح بفلسفة المبادرات الثورية للجماهير الكادحة . فالنضال ما بين الكوادر والطليعة يجري على قدم وساق ، ومع ذلك تنشأ امراض سياسية معروفة بهذا الخصوص . ان وضوح التكتيكات وواقعية الاستراتيجية من شأنه ان يساعد على تصميد النضال الثوري لان الجماهير التقدمية تعرف موضع اقدامها وطبيعة الطريق الذي تسير فيه .

وبالاضافة الى ما تم ذكره ، فان ذلك من شأنه ان يقيم علاقة ناظم وجدل ما بين الجماهير وبين التكتيكات والاستراتيجية الموضوعية . هذا في حالة بلوغ التكتيكات والاستراتيجية مرحلة كبيرة

واذا رجعنا الى الاسباب الموضوعية والذاتية تضعف الفعالية الجماهيرية ، فانه يسهل علينا تشخيص ثلاثة عوامل وراء هذه الظاهرة الاجتماعية والسياسية العامة :

أ - مسؤولية الازمات العامة ذاتها كواضع متخلفة ومتأخرة الى درجة كبيرة .

ب - مسؤولية العدو المشترك المتكون من ائتلاف الامبريالية العالمية والرجعية المحلية والطابور الخامس والحكام المرتزقة الخونة .

ج - مسؤولية الجماهير نفسها ، من حيث ان مبادراتها الجماعية تبقى في حد ادنى مهما بلغ الارهاب من قوة وشراسة واتساع . الا ان الجماهير الشعبية ذاتها متهمه هي وقادتها الطليعيون بتهم النقاعس واللامبالاة في فترة من فترات الزمن ، وعدم استثمار الطاقات الكامنة والقدرات المتوافرة في أغلب الفترات .

ونظرا لكون العاملين ، الاول والثاني ، قد قتلنا بحثا وتمحيصا ، سواء بشكل جذري عميق ، أم بصورة ارتجالية سطحية ، كما ان قدرا ضئيلا من الثقافة الثورية قد اكسب المواطن العادي النظر الساقب الذي اهله ملاحظة طبيعة تكوين هذين العاملين ، فاننا سنلجأ فقط الى الخوض بالموضوع الثالث ، الاخير ، لا لانه لم يبحث بما فيه الكفاية ، فقد جرى شيء من هذا القبيل ، الا ان بحث ذلك لم يصاحبه في أكثر الحالات ، الاسناد الفكري ، بنية ايجاد عوامل فعالة لتنمية الفعالية الجماهيرية ومنح طاقاتها الثورية محتوى متقدما .

ان الماركسيين يتفقون في ان الجماهير أقوى من أعدائها ، وان الطاقة قادرين على استباحة القيم البشرية النضالية التي اكتسبت قدرا من القدسية بالنظر لارتباطها العضوي الوثيق مع طبيعة الشعب المناضل وتاريخه . الا ان هذه الاستباحة وذلك الانتهاك ليسا قادرين على الاستمرار الى فترة طويلة لا يتقبلها العقل السوي ، والا فان العلة اما في الجماهير ذاتها حيث تنهم بالنقاعس والمسكنة ، او في أدوات القمع الوحشي التي أفقدت الجماهير قدرات الدفاع عن ذاتها . وعلى أية حال ومهما يكن من أمر فان الحياة لا تسير على نمط واحد ، وقانون التناقض يحكم جميع الاشياء والاحداث والمواقف بشكل رائع وجلي .

فقد يستطيع الطغيان تجريد التطور الثوري والنمو الجماهيري الخلاق على سائر الاصعدة ، الا ان ذلك يجري الى حين . وهذا الحين يطول ويقصر تبعا للظروف الموضوعية والشروط الاجتماعية . ان تنمية القدرات والكفاءات الثورية للجماهير الكادحة يتم على الصورة التالية :

١ - الثقافة الطبقية :

ان نشر الثقافة الطبقية بين عموم الجماهير البائسة - لا البائسة - من شأنه ان يمنح الكادحين مفاهيم ثورية حول الوضع العام . ونتيجة ذلك اشتداد الاحتدام الاجتماعي والطبقي بشكل يندر بفقر انتهاء عهد الاستقلال والتخلف والفاقة .

٢ - لكل دوره ومكانته :

وضع الانسان في مكانه من بنين النضال الجماهيري العاصم ، بمعنى ان الوعي الثوري لن يفيد فلامه ظفر فيما اذا لم يصاحبه عمل مباشر في تنفيذ الفكر الثوري . وهذا يؤدي الى ابعاد الانسان عن بؤرة الفرية الذاتية والانطواء والانكفاء . فعائلته الصغيرة جزء من عائلة الشعب المناضل الكبيرة ، وأي تجزئة تخدم المخطط الرجعي - الاستعماري الرهيب .

ان استئصال امراض اللامبالاة أو التردد أو الجبن النفسي او السياسي مهمة تنحصر ضمن خطة التوعية الثورية الجماهيرية . وكلما تم كسب أحد هؤلاء وتحويله تحويلا نوعيا الى فاعل ثوري تفتتح امامنا الآفاق الواسعة لكسب الآخرين الذين من هذا القبيل والنمط .

هامشية تستند قواها الذاتية . أن دراسة كل ذلك يدخل ضمن -
التكتيكات وكذا الاستراتيجية . والقاعدة الذهبية هي التقدير الحقيقي
لقوى الذات - الذات الجماهيرية فكرا وبشرا - وكذا معرفة مدى
قوة الخصم الاجتماعي .

فمعرفة الذات الجماهيرية تتيح المجال لتطويرها وخصابها
وتكثيف مضامينها الاجتماعية التقدمية ، وبالتالي تخلق ذاتا صامدة
حيال خصم عنيد لا يرحم ولا يهمل ولا يهمل .

كما أن المعرفة الكاملة للخصائص العامة والذاتية للجانِبِ المضاد
تستلزم دراسة وضعه الذاتي وحلفائه المخلصين في الداخل والخارج .
والقضية لا تختلف من ناحية التشبيه عن لعبة الملامكة . إذ يستلزم
الملك المبارع حسن استخدام قدراته وكفاءاته ، وفي الوقت نفسه
ينبغي عليه الاطلاع الكامل على نقاط قوة خصمه وضعفها .

٨ - تقييم المراحل السابقة :

ان الجماهير الثورية لا يمكن أن تحوز على مكاسب جديدة وتصون
مكاسبها الراهنة من غير مراجعة نفسها بين الفترة والأخرى . وهذا
يقضي اللجوء الى فكرة « التقييم المرحلي » لكل فترة على حدة ،
فتراجع - حينئذ - الجماهير سائر أعمالها لفرض فحصها فحصا دقيقا
كاملا ، كيما يتم تنمية وتطوير الانجازات التي تم انتزاعها بواسطة
نضال عنيد مرير . وكذلك دراسة الاسباب الموضوعية والذاتية
للالتهكاسات الوطنية ، وملاحظة ان كان سببها ذاتيا أم خارجيا ،
بغية استئصال الاسباب الكفاحية التي تتفوق خسائرها على أرباحها ،
أي تنطوي على خصائص متخلفة .

ان فكرة التقييم المرحلي النقدي لا يجوز أن تمتد الى أكثر من
ثلاث سنوات . لان تجاوز هذه المدة معناه تراكم الاخطاء والمشكلات
وصعوبة معالجة النتائج التي اكتسبت واقفا مؤلما .

كما ان هذه الفكرة من شأنها إعادة النظر في الاسباب الكفاحية
المستخدمة في النضال الجماهيري واستحداث أساليب جديدة وحديثة
وعصرية ، علاوة على تكثيف قوة الدفع الثوري ، ومضاعفة التناقضات
بين الحكم السياسي القائم والجماهير الشعبية التقدمية . وهو
يشكل ، بصورة أو أخرى ، مؤتمرا وطنيا عاما تشترك به أغلبية
المناصر المدركة الواعية التي تستطيع على ضوء إمكاناتها الذاتية
تقديم المقترحات والآراء ومناقشة الواقع الثوري والتنظيمي والفكري .
ويمكن اعتبار الجماهير الشعبية التقدمية مشتركة بسائر
أعضائها بهذا المؤتمر لأنها توصل مقترحاتها وتقدها عبر مناضليها
الثوريين . فإذا سارت الأمور حسب ما يرام وكما ترغب الجماهير ،
فان ذلك من شأنه تصعيد النمو الجماهيري ، وزيادة الفعالية الثورية .

٩ - استباق الاحداث :

ان الجماهير لن تستطيع تنمية قابلياتها الذاتية وهي تلهث وراء
الاحداث على أفضل حالة ، أو تتفرج على الامور العامة على أسوأ
حالة ، وانما تصنع الاحداث والوقائع بشكل يوسع من حجم دور
الارادة البشرية في التطور الاجتماعي والتاريخي ، من أجل خلق الانسان
الجديد . فالفعالية البشرية ذات الزخم النضالي الهائل تصاب
بالشلل اذا لم توظف ذاتها في مهام آتية عامة . أما اذا حدث العكس ،
فان الفعالية النضالية للجماهير الثورية تأخذ بالاتساع عمقا ومدى .
وهذا الاتساع ليس من النمط المدي أو الحجمي ، وانما استثمار
الفعالية بالصيغة العلمية الموضوعية من شأنه أن يزيدها كثافة وتركيزا :
الكثافة من ناحية المضمون الثوري التقدمي ، والتركيز من ناحية
التماسك المطلوب في العلاقات التنظيمية والفكرية .

عبد القادر حافظ

بغداد

من النضج والاكتمال والثورية ، بحيث تؤدي الى رفع الجماهير الى
مصاف عالية من الثورية والفعالية والزخم المسادي الهائل . أما اذا
حصل العكس ، أي ان التكتيكات والاستراتيجية متخلفتان عن الواقع
الجماهيري المحسوس ، فان واجب الطليعة الثورية وكذا الجماهير
الكادحة يكمن في الاستبدال أو التطوير النقدي .

٥ - النقْدان الذاتي والموضوعي :

يقول موريس توريث : « النقد والنقد الذاتي خبزنا اليومي » .
وهذه مقولة يحالفها الصواب التام دوما . فالنقد يقتضي الاخطاء
والعيوب بسهولة ويسر ، وبالتالي سرعة استئصالها . كما ان عادة
النقد من شأنها أن تخلق لدى الثوري خبرة ناضجة في ملافة الاخطاء
الجديدة ، وكذلك امتلاك منهج موضوعي نقدي يستهدف التقليل من
اخطاء المستقبل قدر المستطاع .

ان الجماهير الثورية تتعلم عبر النقد الذاتي والموضوعي اضعاف
ما تتعلمه وهي تواصل نضالها بغسوة وصرامة . فمن شأن النقد
- ذاتيا كان أم موضوعي - أن يرشدها الى اصوب الخطوات ،
وعدم تكرار الاسباب القديمة والبيالة ، والقدرة على عدم فسح
المجال الكافي أمام الخصم لكي يستغل عثراتها أو نكساتها ومواطن
ضعفها بأي شكل من الاشكال .

صحيح - كما يقول كاسترو - بان الخصم سيستفيد من نقدنا
في عملية التشهير والتشكيك ، الا ان الثوار يستفيدون أكثر .
وهذا ما تم بيانه قبل قليل .

٦ - نلاحم الفكر بالواقع :

يقول لينين : « تشغف وأنت تناضل وناضل وأنت تشغف » .
ان هذه الزاوجة الديالكتيكية المسادية ما بين النظرية والتطبيق ،
تسحب آثارها العامة على المناضل الثوري ذاته . فان ذلك من شأنه
أن تكون الممارسة العملية الاجتماعية تتطابق تماما مع طبيعة النظرية
الثورية . كما ان هذه الزاوجة الحية تؤدي الى اغناء النضال الثوري
بمضمون فكري تقدمي . وأيضا بالعكس ، يكتسب الفكر الثوري
مستوى واقعا بتأثير الفحاهم بدقائق الحياة اليومية . فلا فكر حبيس
الكتب ، ولا واقع يقبع بعيدا عن زخم وفعالية النظرية الثورية .

ان الطليعة ليست كمفهوم نخوي ، وانما رهافة وعيها الثوري
والطغي وكثافة فكرها التقدمي والعلمي وتمرسها بالنضال الثوري
العنيد ، وأخيرا وليس آخرا بعد نظرها الناقد المتأني من تطويع
الاستراتيجية الثورية - كل ذلك أهل جماعة من الجماعات لتصبح
طليعة ثورية لحركة الجماهير الكادحة . وينبغي - فيما ينبغي - عدم
شعور أي فرد من الطليعة بأنه في واقع متميز ، أي ان مسؤولياته
كرائد جماهيري تستلزم عدم انتاج احساس فردي ذاتية . وبعبارة
ثانية ، يستوجب الامر أن لا يفرس واقعه في نفسه شعورا بالتفوق
والتميز والخصوصية ، لان ذلك من شأنه أن يروج فكرة عبادة الفرد
السيئة الصيت .

٧ - معرفة الذات والخصم :

ان الحركة الجماهيرية ، لكي تسير في الطريق الصحيح وتحصل
على نتائج مضمونة وأكيدة ، لا مندوحة لها من أن « تتخصص » في
معرفة طبيعة خصمها الطبقي والسياسي من نواحي الفكر والنفسية
والاسباب القمعية والتكتيكات المرحلية المضادة ، ومدى كثافة فواه
الحقيقية ، والاسانيد التي يستند عليها وكيفية اقتداره على انباط
الهمم وزرع اليأس وشل الحركة الثورية (الجزئي أو الوقي)
وايقاعها في تخبطات أو تناقضات أو حساسيات أو صراعات جانبية -